

سُورَةُ الْقَلَمِ

رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى إِمْتِحَانِ الْخُلُقِ
وَمِنْ فِتْنَةِ النِّعْمَةِ إِلَى سَجْدَةِ النَّجَاةِ



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْقَلَمِ

رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

وَمِنْ فِتْنَةِ النِّعْمَةِ إِلَى سَجْدَةِ النَّجَاةِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْقَلَمِ | رِحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

السورة التي تبدأ بالقلم وتنتهي بالذِّكْر

ليست مصادفةً أن تُفتَح سورة القلم بأداة الكتابة، ثم تمضي بعد ذلك لتتحدث عن الخلق، وعن الكلمة، وعن النعمة، وعن الافتراء، وعن المال، وعن البنين، وعن البستان، وعن المسكين، وعن السجود، وعن الصبر، ثم تنتهي بالقرآن نفسه: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ فكان السورة من أول حرف فيها إلى آخر حرف تريد أن تضع الإنسان أمام سؤال واحد شديد العمق: ماذا يكتب وجودك في هذه الحياة؟ وماذا تسطر أنت في صحيفتك، لا بالحبر وحده، بل بأخلاقك، واختياراتك، ومواقفك، وطريقتك في استعمال النعمة، وطريقتك في مواجهة الأذى، وطريقتك في النظر إلى الناس؟ إن القلم هنا ليس أداة خارج الإنسان وحسب، بل يكاد يتحول في نسيج السورة إلى رمزٍ للمسؤولية كلها؛ فالحياة كتابة ممتدة، والخلق كتابة، والموقف كتابة، وما تملكه كتابة، وما تمنعه عن الآخرين كتابة، وحتى الصمت في بعض المواضع كتابة لا حبر لها، ولكن لها أثر لا يحوه الزمن.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

وسورة القلم من السور المبكرة التي نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه واحدة من أقسى المعارك التي يمكن أن يواجهها صاحب رسالة: معركة تشويه صورته قبل مناقشة فكرته؛ فلم يبدأ خصوم الوحي بالبرهان، لأنهم لم يملكوه، بل اتجهوا إلى الإنسان الذي يحمل البرهان فقالوا عنه ما قالوا، واتهموه في عقله، وحاولوا إسقاط منزلته لِيُسْقَطُوا بذلك ما جاء به، فجاء الوحي لا ليدخل معهم في صخب الشتيمة، بل ليضع ميزاناً آخر تماماً، ميزاناً لا يصنعه جمهور ولا تهدمه دعاية: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وبين قولهم: مجنون، وقول الله: ﴿لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ تتفتح واحدة من أعظم دروس السورة: ليس الإنسان هو الصورة التي يصنعها خصومه عنه، ولا القيمة التي يمنحها له ضجيج الناس، وإنما هو حقيقته عند الله، وحين يعرف المؤمن من أين يستمد تعريفه لنفسه يقلُّ سلطان البشر على قلبه.

ثم لا تبقى السورة في ميدان الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم، بل تنقلنا إلى تشريح شخصية مضادة تماماً لشخصيته، فإذا كان هو على خلق عظيم، فهناك في الجانب الآخر إنسانٌ يكثر الحلف لأنه يفتقر إلى الثقة، ويهمز لأنه يفتقر إلى النبيل، ويمشي بالنيمة لأنه لا يستطيع أن يبني حضوره بنفسه فيبنيه بتخريب حضور الآخرين، ويمنع الخير لأن المال استوطن قلبه، ويعتدي لأن القوة لم تهذب، ويأثم لأن الضمير مات فيه، ثم يصل به فساد الداخل إلى أن

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

يسمع آيات الله فيقول: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهكذا لا تقابل السورة عقيدة بعقيدة فقط،

وإنما تقابل نموذجاً إنسانياً بنموذج إنساني؛ لأن الإيمان في القرآن لا يعيش فكرةً معلقةً فوق

السلوك، بل يصنع نوعاً من البشر، كما أن التكذيب إذا استحکم لا يبقى رأياً فكرياً مجرداً، بل

يبدأ في تسريب فسادَه إلى اللسان والخلق والمال والعلاقات.

وفي منتصف السورة تقريباً تُفتح أمامنا بوابة بستان أخضر، ثم لا يلبث أن يصير ليلاً أسود؛

أصحاب جنةٍ يملكون الثمرة ولكنهم لا يملكون أنفسهم، ويظنون أن النعمة حق خالص لهم،

فيقررون أن يقطعوا محصولهم قبل أن تصل إليه يد الفقير، ويغلقون أبواب الصباح في وجه

المسكين، فإذا بالقدر يدخل الحديقة ليلاً، لا يحتاج إلى مفتاح ولا ينتظر إذناً، ويخرج منها

قبل أن يستيقظ أصحابها وقد نقلها من الامتلاء إلى الفراغ، ومن الثمرة إلى الرماد. وليس

المشهد قصةً زراعيةً فحسب، بل هو درس كامل في فلسفة الملكية القرآنية: الإنسان يملك،

نعم، ولكنه لا يستقل؛ ويزرع، نعم، ولكنه لا ينبت؛ ويخطط، نعم، ولكنه لا يضمن؛

وما لم تبق النعمة موصولةً بواهبها فإنها تتحول بسهولة من باب شكر إلى باب غرور، ومن

وسيلة حياة إلى حجاب عن الله.

ثم ترتفع السورة من بستان الدنيا إلى محكمة الآخرة، فتسأل سؤال العدالة الذي لا يستطيع

الباطل أن يجيب عنه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾؟ ثم تهدم الوهم الذي يصنعه

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

الإنسان حين يريد أن تكون الآخرة نسخةً من أهوائه، وكأن له على الله عهداً بأن يعطيه ما يشتهي، أو كتاباً يقرأ فيه أن مصيره سيكون كما يتمنى، أو شركاء يضمنون له النجاة. ثم يأتي مشهد السجود؛ الأجساد التي كانت تستطيع أن تنحني في الدنيا فلم تنح، تريد أن تسجد يوم القيامة فلا تستطيع، لتكشف السورة هنا سرّاً هائلاً: بعض الفرص إذا فات وقتها لم تعد قابلة للاستدراك، وأن القدرة على الطاعة نفسها نعمة، وأنت حين تستطيع اليوم أن تضع جهتك لله فإنك تحمل كنزاً قد لا يدرك الإنسان قيمته إلا يوم يريد السجود فلا يقدر عليه.

وتكاد السورة تبلغ ذروة التربية حين تلتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد كل هذا التأكيد والضغط، فتقول: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، ولا تقل فقط: فاصبر على أذى قومك؛ لأن الصبر القرآني أعمق من احتمال الألم، إنه إقامة القلب داخل توقيت الله، وعدم الاستعجال على تدييره، وعدم محاولة إخراج الثمرة قبل موسمها، ثم تأتي قصة صاحب الحوت لتقول للداعية ولكل صاحب حق: قد يكون الحق معك، لكن استعجالك ليس دائماً حقاً؛ وقد تكون رسالتك صحيحة، لكن عليك أن تتعلم السير بها في الوقت الذي يريده الله، لا في الوقت الذي تضيق فيه نفسك.

هكذا سنسير في هذا الكتاب مع سورة القلم آيةً بعد آية، لا لنبحث عن معانٍ غريبة نحلّها النص، وإنما لنقف طويلاً أمام ما وضعه النص نفسه أمامنا، نستخرج من نظمته خيطه

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

الممتد، ومن قصصه قوانينه، ومن مشاهدته أسئلته، ومن ألفاظه دقائقها، حتى نرى كيف

تبدأ السورة بقلم يكتب وتنتهي بذكر يهدي العالمين، وكيف يكون بين البداية والنهاية إنسانٌ

يُمْتَحَنُ في أعز ما فيه: عقله، وسماعته، وخلقته، وكلمته، وماله، وصبره، وسجوده.

﴿ن وَالْقَلَمِ﴾: حين يدخل الإنسان عالم المسؤولية من باب الكلمة

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^ج

يجيء الحرف المفرد في أول السورة كأنه بابٌ صغير يفتح على فضاء لا تُرى نهايته، ثم يأتي القلم مباشرة بعده، وتأتي الكتابة: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فيصبح افتتاح السورة كله مشدوداً إلى عالم الحرف والمعرفة والتدوين. ومهما اختلف المفسرون في الحروف المقطعة وما وراءها، يبقى من جلال هذا المطالع أن القرآن الذي تحدى العرب بلغتهم يضع أمامهم مادة لغتهم ذاتها: حرفاً، ثم يقسم بالقلم، فكان المعنى في خلفية المشهد يقول لهم: هذا الوحي الذي أعجزكم لم يأتكم بمادة لا تعرفونها؛ إنها الحروف التي تنطقون بها، ولكن الفارق ليس في الحروف وحدها، بل في المصدر الذي نظمها، كما أن التراب الذي خُلق منه الإنسان معروف، لكن سر الإنسان ليس هو التراب.

والقسم بالقلم يرفع الكتابة من كونها حرفاً بشرية إلى كونها آية تستحق أن يقسم الله بها، وفي ذلك تكريم هائل للعقل حين يتعلم، وللمعرفة حين تُضبط، ولذا كرة حين تتحول من شيء قابل

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

للضبياع إلى شيء قابل للبقاء؛ فالقلم هو مقاومة الإنسان للنسيان، والكتابة انتصار المعنى على فناء اللحظة، وما كان يعيش في صدر رجل واحد يستطيع بالقلم أن يعبر القرون ويسكن آلاف العقول. ولولا الكتابة لانطفأت تجارب أمم بأكملها بموت أصحابها، ولولا التسطير لتحولت المعرفة الإنسانية إلى بدايات تتكرر ولا تتراكم؛ ولذلك يبدأ الوحي الذي يريد أن يبني أمةً بالقراءة والقلم، لا بالسيف ولا بالمال ولا بالسلطان، وكأن تأسيس الإنسان يسبق تأسيس العمران، وتأسيس الوعي يسبق امتلاك الأرض.

غير أن للقلم وجهاً آخر تنبهاً إليه السورة من بعيد؛ فالأداة المكرمة بما تكتب يمكن أن تتحول إلى أداة هدم بما تكتب، واللسان الذي ينطق الحق يستطيع أن ينطق البهتان، والكلمة التي تحيي قلباً تستطيع أن تقتل سمعة، ولهذا لن تلبث السورة نفسها أن تتحدث عن الهماز والنمام والمكذب. وكأنها تقول إن المشكلة ليست في القدرة على الكلام، بل في الأخلاق التي تقود الكلام؛ وليس كل من ملك قلباً استحق شرف القلم، كما ليس كل من ملك منبراً استحق شرف البيان. القسم بالقلم هو تكريم للوظيفة حين تؤدي بأمانة، وهو في الوقت ذاته مسؤولية ثقيلة؛ فما يسطر لا يبقى خارج صاحبه تماماً، بل يعود ليشهد له أو عليه.

ثم تأمل قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فليست العظمة في القلم وحده، وإنما فيما ينتجه القلم، وفي ذلك تحويل للنظر من الوسيلة إلى الأثر؛ فالإنسان قد ينهر بالأدوات، والقرآن يرده إلى

سُورَةُ الْقَلَمِ | رِحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

النتائج: ماذا تسيطر؟ ماذا تترك وراءك؟ بأي معنى ملأت البياض الذي أُتيح لك؟ وهذا السؤال لا يخص الكاتب وحده؛ لكل إنسان صحيفته التي يسطرها بالفعل وإن لم يمسك قلمًا، لأن أيامه أسطر، وقراراته كلمات، وعلاقاته علامات لا تحتفي، والعمر كله كتاب يكتبه صاحبه مسودته الوحيدة بلا فرصة لإعادة الحياة من أولها.

ثم تأتي الآية التالية وكأن القسم كله كان تمهيدًا لها:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

هنا يتحول الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيواجه القرآن تهمة الجنون لا بانفعال ولا بسباب مقابل، بل بحقيقة تُسند إلى أصل أعمق: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾. والنفي وحده كان يمكن أن يكون: ما أنت بمجنون، لكن دخول نعمة الرب في الجملة يملأها بالأمان؛ كأن سلامة النبي صلى الله عليه وسلم وثباته وعقله ونيوته كلها واقعة داخل مظلة الربوبية، وإن ما يراه الناس فيه ليس انفصالًا عن الواقع، وإنما هو ثمرة اتصال بالسماء.

وهذه طريقة قرآنية بالغة العمق في حماية الإنسان من سطوة التصنيف الاجتماعي؛ فقد يكرر الناس وصفًا عنك حتى يكاد ضغط التكرار يجعلك تسأل نفسك: هل أنا كما يقولون؟ وتلك إحدى قسوات المجتمع حين يتحول الرأي المتكرر إلى سجين نفسي، فجاءت الآية لتعلم المؤمن

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

أن الحقيقة لا تُصنع بعدد الأفواه التي تردد الباطل. مكة كلها تستطيع أن تقول «مجنون»،

ولكن كلمة من الله تسقط أصوات مكة كلها؛ لأن ميزان الحقيقة ليس التصويت.

وليس غريباً أن يُتهم صاحب الوحي بما يناقض حقيقته؛ فحين يعجز الناس أحياناً عن

تفسير إنسان خرج عن مألفهم، بدلاً من أن يعيدوا النظر في مألفهم، يعيدون تصنيف

الإنسان. إنهم لا يسألون: لعل ما عنده حق؛ بل يقولون: لا بد أن به شيئاً. وهكذا تصبح

تهمة صاحب الرسالة أحياناً وسيلة دفاع نفسي عند المجتمع، لأن الاعتراف بأنه عاقل وأن

رسالته جادة يعني الدخول في امتحان مكلف، أما اتهامه في عقله فيسمح للمرء أن يواصل

حياته بلا أسئلة.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

بينما الناس يخلصون من مقام النبي صلى الله عليه وسلم، يفتح الله أمامه حساباً آخر لا

ينقص: أجر غير ممنون، أي غير مقطوع ولا منقوص. وما أجمل هذا التعويض في بناء

الروح؛ فهناك أوقات يخسر فيها صاحب المبدأ تصفيق الناس فيربح شيئاً أعظم لا تراه

العين. وقد ينقص رصيده في المجالس بينما يزيد رصيده في السماء، ويصغر في خطاب

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

خصومه بينما يكبر عند الله، والمشكلة أننا كثيراً ما نفقِس أنفسنا بالحساب الذي نراه وننسى الحساب الذي لا نراه.

والأجر هنا يأتي قبل النصر الظاهر؛ لم يقل له إنهم سيؤمنون جميعاً أو إن مكة ستخضع قريباً، وإنما أعطاه ما هو أرسخ: العمل عند الله لا يضيع. وهذه الحقيقة تصنع نوعاً آخر من العاملين؛ إنساناً يستطيع أن يواصل الطريق ولو تأخر التصفيق، لأن مصدر طاقته ليس النتيجة الفورية. وأشد الناس تعرضاً للانكسار من يعمل للثمر وحده؛ فإذا تأخر الثمر ظن أن الزرع ضاع، أما من يعمل لله فإنه يعرف أن نجاح الطاعة يبدأ من وقوعها على الوجه الذي يرضيه، قبل أن تظهر آثارها في الخارج.

ثم تأتي الآية التي أصبحت وحدها تعريفاً كاملاً لشخصية النبوة:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

لم يقل القرآن: وإنك لصاحب خلق عظيم، بل جاء التعبير بـ﴿لَعَلَى﴾، وفيه إحساس بالتمكن والاستعلاء والاستقرار، كأن الخلق العظيم أرض ثابتة يقف عليها النبي صلى الله عليه وسلم، لا حالة عارضة يتزين بها أمام الناس ثم يخلعها إذا خلا بنفسه. والخلق بهذا المعنى ليس ابتسامة اجتماعية ولا حسن تصرف في أوقات الراحة، بل بنية داخلية تحمل الإنسان حين

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

يُسْتَفْز، وحين يُظلم، وحين يملك القدرة على الانتقام، وحين نتعارض مصلحته القريبة مع مبدئه البعيد.

وما أبلغ أن تأتي شهادة الخلق في سياق اتهام الجنون؛ فهم أرادوا إسقاط العقل، فأثبت الله عظمة الخلق، لأن الشخصية النبوية ليست متماسكة في جانب واحد فقط. وخلق العظيم ليس هامشاً على الرسالة، بل جزء من برهانها؛ فالوحي الذي لا يصنع في حامله إنساناً أصدق وأرحم وأعدل وأثبت يبقى معرفة لم تتحول إلى حياة. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسيراً بشرياً حياً للقرآن، لا بمعنى أنه يحل محل الوحي، ولكن بمعنى أن القيم التي يتلوها الناس في الآيات رأوها تتحرك أمامهم في إنسان.

وهنا يضع القرآن أمام كل مشروع إسلامي سؤالاً لا يمكن الهرب منه: ماذا صنعت الفكرة في أخلاق حاملها؟ لأن أخطر ما يصيب الحق أن يحمله إنسان بطريقة تشوه صورته؛ قد يكون الاستدلال صحيحاً، ولكن الكبر يفسده في أعين الناس، وقد تكون العقيدة نقية ولكن سوء المعاملة يحجب نورها، وقد يحفظ المرء صفحات من العلم ثم يفشل في امتحان كلمة أو خصومة أو أمانة. سورة القلم تقيم الخلق قريباً جداً من القلم؛ فلا تكفي معرفة لا تهذب صاحبها، ولا تكفي كتابة جميلة إذا كان صاحب القلم يترك خلفه جراحاً أقبح من جملة.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخَلْقِ
﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ * بِأَيْكُمْ الْمُفْتُونُ.

ثمة قضايا لا تحتاج إلى أن تحسمها في اللحظة نفسها؛ الزمن نفسه سيكون جزءاً من البرهان.
﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾؛ سيأتي يوم تنقشع فيه الغبرة، ويعرف من كان يملك الرؤية ومن كان أسير الوهم. وهذه الآية تعلم صاحب الحق ألا يستهلك قلبه في إجبار الناس على فهمه فوراً، فبعض الأحكام تحتاج إلى المسافة، وبعض الحقائق تحتاج إلى أن تمر الأيام فوقها حتى يظهر معدنها.

كم من إنسان أدانته لحظته وأنصفه التاريخ، وكم من باطل صنع حول نفسه هالةً ساطعة ثم لم تمض أعوام حتى ظهر خواؤه. وليس المقصود أن التاريخ معصوم في أحكامه، وإنما أن الباطل يحمل عوامل انهياره في داخله، والحق يملك قوة بقاء لا تمنحها له الدعاية. ولهذا كان في ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ نوع من تبريد القلب؛ لا تدخل كل معركة، ولا ترد على كل اتهام، ولا تحاول أن تتنزع اعترافاً ممن أغلق بابهم، فهناك أشياء ستشرحها الأيام أفضل مما تشرحها الكلمات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رِحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

وينتهي هذا المقطع بإعادة الحكم كله إلى الله. لم يعد السؤال: ماذا قالت قریش عن محمد؟

بل: ماذا يعلم الله عن الضال والمهتدي؟ وبين السؤالين يتحرر المؤمن من محكمة البشر. فالله لا

يرى الصورة التي نعرضها، بل الحقيقة التي نحن عليها، ولا يخدعه حسن التقديم ولا كثرة

الأنصار ولا قوة الضجيج. وقد يكون إنسان في نظر الجماهير رمز هداية وهو عند الله بعيد،

وقد يكون آخر محاصراً بالتهم وهو في علم الله من المهتدين.

إنها آية تغلق باب القلق على السمعة وتفتح باب الخوف على الحقيقة؛ ليس المهم أن تنجح

في إقناع الجميع أنك مهتد، بل أن تكون مهتدياً عند من يعلم. وهذا التحول وحده يعيد

ترتيب حياة كاملة؛ فبدل أن تتفق عمرك في تحسين صورتك، تبدأ في إصلاح حقيقتك،

وبدل أن تسأل: ماذا سيقولون؟ تسأل: أين أنا من سبيل الله؟

الفصل الثاني

﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾: اللحظة التي يتحول فيها التنازل الصغير إلى هزيمة كبيرة

﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

بعد تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم من الداخل، تنتقل السورة إلى تنظيم علاقته بالضغط الخارجي، وهذه لفظة تربوية عميقة، لأن الإنسان لا يستطيع مقاومة الابتزاز الخارجي طويلاً ما لم يحسم هويته داخلياً أولاً. قالت له الآيات من قبل: أنت لست كما يصفونك، وأجرك محفوظ، وأنت على خلق عظيم، وربك أعلم بالمهتدين؛ وبعد أن استقرت هذه الحقائق جاء الأمر: ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾. فكان الاستقلال في الموقف ثمرة للاستقلال في تعريف الذات.

وليس أخطر ما يطلبه الباطل من صاحب الحق دائماً أن يترك الحق كله؛ فهذه صفقة فجة قد يرفضها بسهولة، وإنما يبدأ غالباً بطلب منطقة رمادية، مقدار قليل من التلين، كلمة تُحذف هنا، وحقيقة يُسكت عنها هناك، وموقف يُؤجل، ومبدأ يعاد تفسيره حتى يصبح

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ
قابلاً للرضا العام. ولهذا جاءت الآية التالية شديدة الكشف: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾؛
إنهم يريدون علاقة تبادلية: أعطنا شيئاً من مبدئك نعطك شيئاً من قبولنا.

والمداهنة ليست الحكمة، كما أن الثبات ليس الفظاظة؛ يستطيع المؤمن أن يكون ليناً في
الأسلوب شديد الثبات في الأصل، رحيماً بالناس غير قابل لبيع الحقيقة من أجل رضاهم.
والخلط بين الأمرين أحد أبواب الضعف؛ فبعض الناس يظن أن حسن الخلق يعني أن
تكون الحقائق قابلة للتعديل حتى لا ينزغ أحد، بينما كان صاحب الخلق العظيم نفسه هو
المأمور هنا: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾. فالأخلاق لا تعني رخاوة المبادئ؛ بل ربما كان
الصدق مع الناس من أعظم الأخلاق، حتى عندما لا يحبون ما يسمعون.

ثم تبدأ السورة في رسم صورة إنسان لا ينبغي أن يصبح صاحب الرسالة تابعاً له:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْنٍ﴾.

إنه كثير الحلف، وكأن الكلام لم يعد يملك ثقله وحده، فيحتاج صاحبه في كل مرة إلى أن
يسنده بقسم. وكثرة الحلف في هذا السياق ليست قوة، بل علامة اهتزاز؛ ولهذا جاء بعدها
﴿مِثْنٍ﴾. وما أغرب أن يحاول الإنسان تعويض سقوط المعنى برفع الصوت، وتعويض

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى أَمْتِحَانِ الْخُلُقِ

ضعف الثقة بتكرار القسم. الكرامة الحقيقية لا تحتاج إلى هذا الضجيج؛ فالصدق على المدى الطويل يبني لصاحبه رصيداً يجعل كلمته وحدها ثقيلة.

﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ﴾.

هنا يدخل القرآن إلى سوق العلاقات البشرية، إلى ذلك النوع من البشر الذي يعيش على تمزيق ما بين الآخرين. «هماز» يطعن ويعيب ويستصغر، ثم لا يقف شره عند موضعه، بل هو ﴿مَشَاءٍ بَنِيمٍ﴾؛ كأن النعمة لها أرجل، وكأن الخبر السيئ لا يكفيه أن يُقال بل يحتاج إلى من يحمله من مجلس إلى مجلس حتى تتحول الكلمة إلى نار اجتماعية.

وتأمل «مشاء»؛ إنها صيغة تجعل الحركة نفسها جزءاً من شخصيته، فهو ليس ممن زل لسانه مرة ثم ندم، بل ممن اتخذ نقل الكلام وظيفةً نفسية. يعيش من المسافة بين شخصين، ويتغذى على سوء الظن، ويشعر بثيء من القوة لأنه يحمل سراً أو خبراً يستطيع به أن يحرك مشاعر الآخرين. وما أكثر البيوت والصدقات والجماعات التي لم تهدم بسبب خلاف حقيقي، وإنما بسبب إنسان «مشاء بنيم» أحسن نقل الكلمات وأساء نقل المقاصد.

﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

إن الفساد لا يتوقف عند اللسان. القلب الذي استباح أعراض الناس يستطيع بسهولة أن يخل عليهم بالخير، ثم يعتدي، ثم يأثم؛ وكأن السورة تكشف شبكة داخلية لتغذى عناصرها بعضها من بعض. وما أجمل كلمة ﴿مَنَاعٌ﴾ في كشف طبيعة البخل المتأصل؛ إنه لا يمنع مرة، بل أصبحت لديه قابلية دائمة لأن يقف بين الخير وبين مستحقه.

ومن هنا نستطيع أن نفهم أن المال في القرآن امتحان أخلاقي قبل أن يكون امتيازاً اقتصادياً. لا يسأل القرآن فقط: كم تملك؟ بل: ماذا فعلت بك ملكيتك؟ هل اتسع قلبك باتساع رزقك أم ضاق؟ هل صرت جسراً يعبر الخير من خلاله أم صرت جداراً يقف في طريقه؟ وكم من إنسان كان فقره خارج جيبه فلما اغتنى دخل الفقر إلى قلبه، فأصبح يملكه كثيراً وما يستطيع أن يعطيه قليلاً.

﴿عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾.

تراكم الصفات حتى نصل إلى قسوة في الطبع وغلظة تستوي على الشخصية. والقرآن لا يقدم هذه الأوصاف للتشفي من إنسان، بل ليرينا إلى أين يمكن أن ينتهي الخلل حين يُترك بلا مقاومة؛ فالزذيلة لا تعيش منفردة غالباً، والكذب يستدعي ما يحميه، والكبر يحتاج إلى

سُورَةُ الْقَلَمِ | رِحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

احتقار الآخرين، والبخل يحتاج إلى تبرير، والنيمة تحتاج إلى سوء ظن، وهكذا يبني الإنسان حول خطئه منظومة كاملة حتى تصبح العودة أصعب.

ثم تفاجئنا السورة بما يشبه الكشف عن أحد جذور هذا التضخم:

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

المال والبنون في أنفسهما نعمة، لكن النعمة حين تنفصل في وعي الإنسان عن المنعم قد تتحول إلى وقود للطغيان. «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ»؛ أهذه منزلته التي جعلته يتعالى؟ أهذه القوة التي أغرته بأن يشعر أنه فوق الحق؟ وهنا نتصل هذه الآية اتصالاً عجيباً بقصة أصحاب الجنة التي ستأتي بعد قليل؛ فالمشكلة التي أصابت الفرد ستظهر بعد ذلك في جماعة: وهم الملكية المستقلة، وتضخم الإحساس بالقوة بسبب النعمة.

﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وصل الفساد إلى مركز المعرفة؛ لم يعد الأمر سلوكاً اجتماعياً سيئاً فقط، بل أصبحت النفس مهياة لرفض الوحي نفسه. وهذه العلاقة جديرة بالتأمل طويلاً: لماذا يربط القرآن كثيراً بين فساد القلب وفساد الموقف من الحقيقة؟ لأن الإنسان لا يفكر بعقله المجرد فقط؛

سُورَةُ الْقَلَمِ | رِحْلَةُ مَنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

شهوته ومصالحه وكبرياؤه تدخل معه غرفة التفكير، وقد يرفض الدليل لا لأنه ضعيف، بل

لأنه قوي إلى درجة تهدد النظام الذي بنى عليه حياته.

فإذا كانت الآية ستلزمه بالتواضع وهو يريد الكبرياء، يصبح من الأسهل أن يسميها أسطورة،

وإذا كان الوحي سيضع للفقراء حقاً في ماله وهو يريد المال كله لنفسه، قد لا تكون المشكلة

في غموض الوحي بل في وضوحه. وهنا تفهم أن بعض المعارك الفكرية ليست فكرية خالصة؛

تحت سطح الكلمات تقف إرادات ومصالح ومخاوف.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.

أراد الرجل أن يصنع للآخرين أسماءً مهينة، فجاءه الوعد بعلامة لا يستطيع إخفاءها. وفي

استعمال «الخرطوم» بدل الأنف نوع من الإهانة المناسبة لكبريائه، كأن الذي بالغ في

احتقار الناس تنزع عنه اللغة نفسها زينة التعظيم التي صنعها لنفسه. وهذه سنة نفسية

وأخلاقية عجبية: من بنى مجده على إذلال الآخرين يحمل بذور إذلاله في الوسيلة ذاتها، لأن

الكبرياء لا تحمي صاحبها؛ إنها تؤجل السقوط فقط، وربما جعلته أشد وقعاً.

أصحاب الجنة: حين نام المالكون واستيقظ القدر

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَنُونَ﴾.

فجأة تتركوا السورة أمام شخصية المكذب وتدخل بنا حديقة. الأشجار مثمرة، والموعد صباح، والخطوة واضحة، وأصحاب البستان وافقون من حصادهم إلى درجة أنهم أقسموا عليه. ليس في ظاهر المشهد ما ينذر بكارثة؛ وكل شيء محسوب إلا شيء واحد: الله.

﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ جملة قصيرة، ولكنها تحمل انهيار تصور كامل للحياة؛ فالاستثناء ليس مجرد لفظ «إن شاء الله» يقال باللسان ويستمر القلب بعده معتمداً على قدرته، وإنما هو وعي بأن المستقبل ليس ملكاً لنا. إنك قد تضع أذكي الخطط وتملك أفضل الأدوات، لكن بين قرارك ووقوعه مساحة لا يملكها إلا الله. ومن نضج الإيمان أن تخطط بكامل جهدك وفي الوقت نفسه تترك نافذةً في القلب لمشيئة الله.

ولم يكن خطوهم أنهم أرادوا الحصاد؛ الحصاد حقهم، وإنما كانت هناك نية مظلمة تنمو تحت هذا القرار ستكشفها الآيات بعد قليل: يريدون أن يسبقوا الفقير إلى الثمرة، وأن يحكموا

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

إغلاق الطريق قبل أن يصل المسكين. وهكذا قد يبدو العمل في الخارج اقتصادياً طبيعياً

بينما يكون في الداخل أخلاقياً فاسداً؛ والله يزن الأعمال بنياتها لا بعناوينها وحدها.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾.

يا لرهبة هذا الانتقال. هم نائمون، والبستان لا ينام عن قدر الله. لم يسمعوا شيئاً، ولم

يستدعهم أحد ليشهدوا انهيار ما يملكون؛ فالنعمة التي أقاموا حولها خطتهم كلها كانت تتغير

حالتها وهم عاجزون حتى عن مراقبتها. وتلك حقيقة قاسية على وهم السيطرة البشري: أشياء

كثيرة تحدد مصيرنا تقع ونحن غائبون عنها تماماً.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾؛ أصبح الامتلاء فراغاً، والخضرة سواداً، والوعد خيبة. وما بين

مساء الجنة وصباح الصريم إلا ليلة. هكذا يعلننا القرآن ألا نغتر بثبات الصورة الراهنة؛

فالحياة ليست ملزمة بأن تبقى كما تركناها قبل النوم. وقد يدخل الإنسان مساءه وفي حسابه

مشروع كامل، ثم يستيقظ على واقع جديد أعاد تعريف كل شيء.

ومع ذلك فالقرآن لا يريد أن يجعل الإنسان مدعوراً من النعمة، وإنما مستيقظاً داخلها؛

الفرق كبير بين الخوف المرضي من زوال النعمة وبين الشكر الذي يعرف أنها من الله. الشكر

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

لا يجعلك أقل استمتاعاً بما أعطيت، بل يجعلك أصدق انتفاعاً به؛ لأنك لا تحوله إلى صنم

داخلي، ولا تتعامل معه كجزء مضمون من ذاتك.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنْ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾.

استيقظوا والخطوة القديمة لا تزال في رؤوسهم، مع أن الواقع تغير ليلاً. وهذه واحدة من

أدق صور الحياة: كثيراً ما نستيقظ بخطط الأمس بينما يكون الله قد أجرى في الليل ما

يجعل تلك الخطط بلا موضوع. الإنسان يتحرك بما يعرف، ولا يعلم ما حدث خلف الستار.

ينادي بعضهم بعضاً بحماس؛ أسرعوا، فالوقت مهم، وينبغي أن نصل قبل الآخرين. كل شيء

في عالمهم الداخلي يقول إنهم مسيطرون، بينما القارئ يعلم منذ الآية السابقة أن الحديقة قد

انتهت. وينشأ من هذا التفاوت بين علم القارئ وجهل الشخصيات توتر عجيب، ولكنه أيضاً

درس عميق: ربما نكون نحن في بعض لحظائنا مثل أصحاب الجنة في هذا الصباح، نمضي

واقفين نحو شيء لم يعد موجوداً بالصورة التي في أذهاننا.

﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

ها هو السر يخرج. كانوا يخفضون أصواتهم، وكأن البخل يعرف في داخله أنه شيء ينبغي أن يختبئ. لم يقولوا: نريد تحسين الإنتاج، ولا نريد تنظيم الحصاد؛ قالوا بوضوح حين آمنوا أن يسمعهم أحد: لا يدخلها اليوم عليكم مسكين.

والمسكين هنا لا يملك قوة تحمي حقه، ولذلك تصبح قضيته امتحاناً خالصاً للضمير. أنت قد تعطي القوي لأنك تخشاه، وقد تحسن إلى صاحب المنصب لأنك ترجوه، أما المسكين الذي لا يستطيع أن يكافئك ولا أن يعاقبك فهو يكشف علاقتك بالله. ولهذا كانت حقوق الضعفاء من أدق موازين التقوى؛ عندهم تسقط الحسابات النفعية ولا يبقى إلا سؤال: هل تؤمن حقاً أن الله يراك؟

﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرِّ قَادِرِينَ﴾.

خرجوا مبكرين في عزم وقوة، وفي تصور أنهم قادرون؛ وهذه «قادرين» مؤلمة في سياقها، لأنهم يشعرون بالقدرة في اللحظة التي انقطعت فيها قدرتهم عن الشيء الذي يقصدونه. كان أقصى ما يستطيعون فعله هو المشي إلى المكان؛ أما الثمر الذي أرادوا التحكم فيه فقد خرج من حساب قدرتهم منذ الليل.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

وهنا تضع السورة خطأً دقيقاً بين القدرة الممنوحة والقدرة المستقلة. الإسلام لا يطلب من الإنسان أن ينكر قدرته؛ أنت قادر بإذن الله على أشياء كثيرة، ومطالب بأن تستخدم هذه القدرة، لكن الكارثة أن تتحول «أنا قادر» من وصف لنعمة أعطاك الله إياها إلى عقيدة استقلال في قلبك.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾.

كانت الصدمة أكبر من قدرتهم على التعرف إلى المكان. قالوا أولاً: لعلنا أخطأنا الطريق. الإنسان حين يرى واقعاً يناقض توقعه بشدة يحاول أحياناً أن يحجب نموذج الذهن قبل أن يراجع نفسه؛ لا يمكن أن تكون هذه جنتنا، إذن نحن في المكان الخطأ.

ثم يسقط الإنكار سريعاً أمام الحقيقة:

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

لم نضل الطريق؛ هذا هو المكان، ولكن النعمة هي التي غابت. وكم هو موجه الانتقال من «نحن قادرون» إلى «نحن محرومون» في ساعات قليلة. الكلمتان وحدهما تلخصان رحلة الكبر حين يصطدم بالقدر.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

وكانوا قد أرادوا أن يحرموا مسكيناً واحداً أو مساكين من شيء من الثمرة، فإذا بهم يُحرمون الثمرة كلها. وليس معنى ذلك أن كل خسارة دنيوية عقوبة على ذنب بعينه؛ فهذا باب لا يجوز لنا أن نفتحه على أقدار الناس بغير علم، وإنما القصة نفسها تخبرنا صراحة عن علاقة امتحانهم بنيتهم، فتعلم منها القانون الأخلاقي دون أن تصدر به أحكاماً متعجلة على مصائب الآخرين.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَمَرٌ أَقَلُّ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾.

كان في الجماعة صوت لم يمت تماماً. «أوسطهم» يحمل معنى الأعدل والأرجح عقلاً، وكان قد ذكرهم، لكن صوت الرغبة الجماعية كان أعلى. وهذا من أسرار الانحراف الجماعي: قد يعرف بعض الناس أن القرار خطأ، لكنهم يضعفون أمام موجة الجماعة، ثم لا تُسمع الحكمة إلا بعد الكارثة.

﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ ما علاقة التسبيح بالبستان؟ العلاقة هي أن التسبيح يعيد الأشياء إلى أحجامها؛ حين تقول «سبحان الله» فأنت تنزه الله عن النقص، وفي باطن هذه المعرفة تسقط أوهام الألوهية الصغيرة التي يبينها الإنسان لنفسه. من عرف أن الكمال لله لم يتعامل مع

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

قدرته كأنها مطلقة، ومن عرف أن الملك لله لم يتعامل مع ملكه كأنه مستقل، ومن عرف أن الله منزّه عن العجز لم يظن أن خطته تقيد مشيئة ربه.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

أخيراً عادت اللغة الصحيحة إلى أفواههم. في أول القصة كان كلامهم: سنصرم، اغدوا، لا يدخلها، قادرين، لغة ممتلئة بأنفسهم. والآن: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾. انتقل مركز الجملة من «نحن» إلى «ربنا».

وهكذا يكون أحياناً أول أثر للتوبة تصحيح اللغة الداخلية؛ تعود إلى رؤية الله في الموضع الذي أخرجته منه غفلتك، ثم تسمي خطأك باسمه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. لم يقولوا: الظروف لم تساعدنا، أو كانت الخطوة سيئة التنفيذ، أو حدثت كارثة طبيعية، بل ذهبوا إلى المنطقة الأخلاقية من الحكاية واعترفوا بالظلم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَائِمُونَ﴾.

وهذه مرحلة بشرية مألوفة بعد الفشل: البحث عن المسؤول. بعد أن انهارت الخطوة بدأ كل طرف يفتح ملف الآخر. اللوم قد يكون صحيحاً في بعضه، لكنه إذا استغرق الإنسان بعد

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

الكارثة تحول إلى وسيلة للهروب من إصلاح النفس. من الذي اقترح؟ ومن وافق؟ ومن

صمت؟ أسئلة مفهومة، لكن الأهم: ماذا تعلمنا؟

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنتَّا طَآغِينَ﴾.

تقدم الوعي خطوة أخرى؛ لم يعد الأمر مجرد «ظلمنا» بل ﴿طَآغِينَ﴾. والطغيان تجاوز الحد،

وقد يكون طغيان سلطة، وقد يكون طغيان ملكية، وقد يكون طغيان نفس ظنت أن حقها

في الشيء يلغي كل حق أخلاقي يتعلق به.

ثم يحدث أجمل تحول في القصة:

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

قبل ساعات كانت رغبتهم متجهة كلها إلى البستان، والآن: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾. ما

أعجب التربية الإلهية حين تسلب أحياناً شيئاً من اليد لتعيد توجيه القلب. لم يعد أملهم في

الشجر، بل في رب الشجر؛ ولم يقولوا إننا سنستعيد ما ضاع بقوتنا، بل ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن

يُبَدِّلَنَا﴾.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخَلْقِ

وهنا تتحول القصة من قصة عقوبة إلى قصة باب لم يُغلق؛ فالقرآن لا يريد أن يترك الإنسان أمام رماد خطئه، بل يريه أن الاعتراف يمكن أن يكون بدايةً جديدة. ربما لا تعود الجنة ذاتها، لكن الله قادر أن يبدل خيراً منها، والأهم أن يعود القلب خيراً مما كان.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

تخرج السورة بالقصة من حدود البستان إلى قانون أوسع. ما رأيناه نموذج مصغر لقدرة الله على إسقاط أوهام الإنسان، لكن الآخرة أعظم؛ لأن خسارة بستان مهما كانت موجعة تبقى خسارة داخل زمن يمكن أن يعقبه تعويض وتوبة وعمل، أما خسارة الآخرة فهي انكشاف المصير بعد انتهاء زمن الاختيار.

الفصل الرابع

﴿أَفَنَجْعُلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾: العدالة التي لا تخضع لأمنيات الإنسان

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

بعد جنةٍ دنيويةٍ احترقت، تفتح السورة جنةً أخرى لا يطوف عليها طائف بالفناء. وهذه المقابلة مقصودة في نسيج السورة: هناك جنة امتلكها البشر فظنوا أنها لهم، وهناك ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ عند الرب. الأولى معرضة للتحول في ليلة، والثانية موصولة بوعد الله.

وتأمل ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ قبل ذكر الجنة يستقر القلب في القرب. وكأن أعظم ما في الجنة أنها «عند ربهم» قبل أن تكون أشجاراً وأنهاراً ونعيمًا. والقرآن يربي المؤمن على ألا يكون تعلقه بالعطاء مفصولاً عن المعطي.

﴿أَفَنَجْعُلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

إنها من أقصر العبارات التي تؤسس لفلسفة العدالة الأخروية. إذا انتهى البر والفجور إلى النتيجة نفسها، وإذا كان الذي كاذب نفسه وأقام حق الله كالذي عاش معتدياً ثم انتهى إلى مصير واحد، فأين معنى التكليف أصلاً؟

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ
﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ سؤال يهز البنية العقلية للحكم الفاسد؛ ما الذي جرى لطريقة

تفكيركم حتى صار الهوى عندكم مصدرًا للحقيقة؟ فالإنسان أحيانًا لا يطلب معرفة المصير كما هو، بل يصمم المصير الذي يريده ثم يبحث له عن مبررات.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ﴾.

هاتوا المصدر. إذا كنتم تزعمون أن لكم عند الله ما تشتهون، فأين الكتاب؟ القرآن هنا يعلم العقل منهجًا بالغ القيمة: الادعاء لا يصير حقيقة لأنه مريح لصاحبه. من أين جئت بهذا؟ والدين خصوصًا ليس مجالًا يصنع فيه الإنسان إلهًا على صورة أهوائه، ثم يضع في فيه الأحكام التي يحب سماعها. لا يكفي أن تقول: أظن أن الله سيفعل كذا، أو لا أتصور أن يحاسب على كذا؛ المطلوب خبر منه، لا أمانينا عنه.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾.

أم أخذتم عهدًا لا ينقض؟ هل ضمن لكم الله أن تكون الآخرة وفق اختياراتكم؟ يتكرر الاستفهام ليجرد الوهم طبقة بعد طبقة؛ لا كتاب، ولا عهد، ولا دليل.

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

حتى الضمان الاجتماعي الذي يتكئ عليه الإنسان يسقط هنا. من منكم يتكفل بهذا الادعاء؟ ومن الشركاء الذين سيحمونكم أمام الله؟ في الدنيا قد تنجو من بعض العواقب بعلاقة أو نفوذ أو اسم، أما الآخرة فتسقط فيها هذه الشبكات التي جعلت الإنسان يظن أنه أقوى مما هو.

حين يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ: عِبَادَةٌ كَانَ بَابُهَا مَفْتُوحًا ثُمَّ أُغْلِقَ

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

نحن هنا أمام خبر من أخبار الغيب، فنؤمن بما أخبر الله من غير تشبيه ولا تكييف، منزهين ربنا سبحانه كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وفي سياق المشهد تنتقل السورة إلى هول يوم القيامة وشدته، ثم يقع الامتحان العجيب: يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ.

يا لها من عقوبة تناسب موضع الجريمة. كم كانت السجدة في الدنيا سهلة من حيث الحركة: مساحة صغيرة من الأرض، ودقائق من الزمن، وجسد سالم، ومع ذلك ثقلت عليهم؛ والآن حين انكشف الحق كله أرادوا الاستجابة، لكن زمن الاختيار انتهى.

وهذه الآية تجعل المؤمن يرى صلاته بطريقة أخرى؛ قيامك للصلاة ليس مجرد تكليف عليك، بل قدرة أُعْطِيتَ لك. جبهتك التي تستطيع أن تنزل إلى الأرض اليوم تحمل فرصة عظيمة. وربما كان من أعمق صور الحرمان أن يكون الإنسان قادراً على السجود جسداً في الدنيا، لكنه لا يريد، ثم يريد في الآخرة ولا يقدر.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخَلْقِ
﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾.

الذلة التي هربوا منها بالسجود لله تأتيهم لأنهم لم يسجدوا له. بعض الناس يتوهم أن العبودية لله تخفض الإنسان، بينما الحقيقة أن من رفض أن يضع جبهته لربه اضطر أن يضع قلبه أمام أشياء لا تستحق: أمام شهرة، أو شهوة، أو مال، أو رأي الناس. ليس السؤال هل ستعبد، بل من ستعبد؛ فالإنسان مفطور على التعلق والخضوع، ومن لم يتحرر لله استعبدته الأشياء.

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ من أشد العبارات إيلاماً؛ لأن كلمة «كانوا» تغلق باب الماضي. كان هناك وقت. كانت الأعضاء سليمة. كانت الفرصة موجودة. وكان النداء يصل. لكن ذلك كله صار تاريخاً.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾: أخطر العقوبات ما يأتي في هيئة نعمة

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

«فذرني» كلمة تسند قلب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قوة لا يحتاج معها إلى أن يحمل بنفسه عبء الانتقام. دعهم لي. وما أعظم راحة المظلوم حين يعرف أن القضية لا تضع بمجرد أنه لم ينتصر لنفسه في اللحظة.

لكن الخيف هو طريقة الأخذ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ليس كل إهمال رضا، وليس كل زيادة في النعمة علامة على سلامة الطريق. قد تكون العقوبة ظاهرة فتوقظ صاحبها، وقد تأتي في صورة استمرار للنجاح حتى يزداد الإنسان ثقةً بطريقه الخاطئ.

وهنا ينبغي أن نخاف من معيار شديد السطحية يتكرر في الحياة: «لو كنت مخطئاً لما نجحت». لا؛ الدنيا ليست محكمةً فورية، والنجاح المادي لا يساوي تزكية إلهية. فرعون

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

ملك، وقارون اغتنى، وكثير من المكذبين أمهلوا. قد تكون النعمة رحمة إذا قادت إلى

الشكر، وقد تتحول على قلب غافل إلى مزيد من الغفلة.

﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾؛ يمهلهم، والزمن الذي يرويه دليلاً على نجاتهم قد يكون جزءاً من الامتحان.

وهذا يجعل المؤمن لا يغتر بالمهلة، ولا يقنط كذلك إذا رأى الباطل ممتداً، فطول عمر

الظاهرة لا يجعلها حقاً.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾.

ما الذي يجعلهم يفرون من الرسالة؟ هل طلبت منهم مالا أثقل ظهورهم؟ لا. وهذه حجة

تكرر في القرآن لإظهار نقاء الدعوة؛ من يدعوهم لا يستنزفهم لصالحه.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

تعود الكتابة التي افتتحت بها السورة، ولكن في صورة ساخرة من دعوى المعرفة: هل

عندهم الغيب حتى يكتبوا أحكام المستقبل بثقة؟ بدأت السورة بـ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾،

وها هي تسأل هؤلاء: من أين لكم أن تكتبوا ما لا تعلمون؟

هناك فرق بين قلم يتلقى المعرفة بأمانة وقلم يتوهم أنه يملك الغيب. وما أكثر ما يفسد العقل

حين يتحول الاحتمال عنده إلى يقين، والرأي إلى قدر مكتوب.

الفصل السابع

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: الصبر ليس انتظاراً للفرج بل أدبٌ مع توقيت الله

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

لم يقل: فاصبر حتى يأتي حكم ربك، بل ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ كأن الصبر نفسه جزء من التسليم للحكم. أنت لا تنتظر الله كما ينتظر الإنسان حدثاً مجهولاً، بل تقيم داخل تديره وأنت تعلم أن له حكمة في مدة الطريق كما له حكمة في نهايته.

وهنا يظهر الصبر في أعلى صورته: ألا تحاول دفع الأحداث إلى النضج قبل أوانها لأن صدرك ضاق. قد تكون على حق، لكن الحق يحتاج إلى توقيت؛ وقد تكون غايتك نبيلة، لكن استعجالها قد يفسد الوسيلة.

﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

يونس عليه السلام نبي كريم، وقد اجتنبه ربه كما ستصرح السورة نفسها، لكن القرآن يربي محمداً صلى الله عليه وسلم ويُرَبِّي به الأمة من خلال هذا الموقف. لا تجعل ضيقك من بقاء استجابة الناس يدفعك إلى مغادرة الموضع قبل أن يأذن الله.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

«وهو مكظوم»؛ امتلاً صدره بالغم حتى كأنه محبوس داخله. والقرآن لا يخفي انفعالات الأنبياء البشرية ليصنع منهم شخصيات أسطورية لا نتعب؛ بل يرينا بشراً مصطفين يمرون بالضيق، ثم تتداركهم رحمة الله، فتكون قصصهم تربيةً للقلوب لا تماثيل بعيدة عن التجربة الإنسانية.

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

ما الذي أنقذه؟ النعمة. لا قوته، ولا خبرته، ولا قدرته على إخراج نفسه من بطن الحوت. حين انتهت الأسباب التي في يده بدأت عين القلب ترى معنى أن تتداركك نعمة ربك. كم مرة لا يحتاج الإنسان إلى أن يصنع النجاة بقدر ما يحتاج أن تتداركه رحمة قبل أن يكتمل سقوطه. وما أوسع فضل الله حين يصل إلى العبد في الموضع الذي لا يستطيع أحد الوصول إليه.

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

يا لجمال النهاية. لم يُحبس يونس عليه السلام إلى الأبد داخل لحظة الخطأ، بل اجتباه ربه. وهذه من أعظم رسائل القرآن لمن زل في طريقه: الله لا يعرفك بخطئك وحده إذا عدت إليه.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

الشیطان یرید أن یحول الزلّة إلى هویة؛ فعلت خطأ، إذن أنت خطأ. أما القرآن فیفتح باب

الحركة: عودة، رحمة، اجتناء، صلاح. قد تكون اللحظة المؤلمة نفسها باباً إلى مقام أنضج إذا

دخلتها بالتوبة.

الفصل الثامن

من «مجنون» إلى ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾: حين تسقط التهمة ويبقى الوحي

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾.

تعود التهمة التي واجهتنا في بداية السورة: «مجنون». وكأن البناء كله يستدير ليغلق دائرته. في البداية قال الله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وفي النهاية نسمعهم يكررون الكلمة نفسها، مما يكشف أن المشكلة لم تكن نقص الأدلة؛ لقد مر بين الموضعين هذا البيان كله، ومع ذلك بقيت التهمة.

وهذه حقيقة ينبغي لصاحب الدعوة أن يفهمها حتى لا ينهار من سوء تقدير طبيعة المعركة: البيان لا يضمن أن يقتنع كل أحد، لأن بعض الرفض لا ينشأ من غياب البيان أصلاً. قد يسمع الإنسان الذكر ثم يزداد غضباً لأنه أدرك ما يطالب به.

﴿لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ يصور شدة نظرات الحقد حتى تكاد تزل القدم من وقعها. وقد يعرف الإنسان هذه النظرات في حياته؛ النظرة التي لا تحمل حجة لكنها تحمل كراهية كاملة.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

ومع ذلك لم يكن الحل أن يعيد النبي صلى الله عليه وسلم تشكيل رسالته حتى يخف توتر أبصارهم؛ بقي الذكر ذكراً.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾.

كل سورة القلم تقريباً كانت جواباً عملياً على هذه الكلمة. أتسمون مجنوناً من هو على خلق عظيم؟ أتهمون عقله وأتم الذين تتبعون حلقاً مهيناً هماً؟ من المضطرب حقاً: الذي يرى النعمة من الله، أم الذي يظن بستانه ملكاً مستقلاً ثم يستيقظ على الرماد؟ من فاقد الرؤية: الذي يصبر لحكم ربه، أم من يتوهم أن له كتاباً يضمن به ما يشتهي في الآخرة؟ ثم تأتي آخر آية فتسقط التهمة كلها بجملة واحدة:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

هم يقولون: جنون. والله يقول: ذكر. هم يحاصرونه داخل وصف مهين، والله يفتح رسالته على العالمين.

وما بين الكلمتين مسافة السماء والأرض.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

الذكر يعيد الإنسان إلى ما ينساه؛ إلى ربه، وإلى أصله، وإلى مصيره، وإلى حقيقة ملكه، وإلى وظيفة نعمته، وإلى قيمة سجوده، وإلى حدود قدرته. وربما كان هذا هو الخيط الذي يجمع السورة كلها: إن أزمات الإنسان فيها كلها تنشأ من النسيان، والخلاص كله يبدأ بالذكر.

صاحب الجنة نسي أن الثمرة من الله، فذكرته الخسارة. المكذب نسي حدود نفسه، فظن أن له أن يحكم على الوحي من موقع الاستعلاء. من يرفض السجود نسي أنه عبد، حتى جاء يوم يريد فيه السجود فلا يستطيع. المستدرج ينسى أن الإمهال ليس أماناً. صاحب الحوت مر بلحظة ضيق، فتداركته نعمة ربه. وفي النهاية يأتي القرآن ليكون «ذكراً للعالمين»؛ قوة تقاوم هذا النسيان الكبير الذي يسحب الإنسان بعيداً عن حقيقته.

وهكذا نعود إلى القلم في أول السورة. القلم يكتب، والقرآن يذكر، والإنسان يمشي بين الكتابة والذكر. كل يوم يكتب شيئاً من مصيره، وكل آية تحاول أن تعيده إلى الصواب قبل أن يجف الخبر.

إن سورة القلم لا تسألنا في النهاية كم كتبنا، بل ماذا كتبت الكتابة فينا؛ ولا كم عرفنا، بل أي خلق أنشأته المعرفة؛ ولا كم امتلکنا، بل هل بقيت النعمة في أيدينا أم تسلت إلى قلوبنا

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخَلْقِ

فلكتنا؛ ولا كم دافعنا عن الحق، بل هل بقينا ونحن ندافع عنه على خلق عظيم؛ ولا كم

طال انتظارنا، بل هل صبرنا لحكم ربنا.

إنها سورة تبدأ بالقلم، لكن أعظم صفحاتها مكتوبة في الإنسان.

وتبدأ بالدفاع عن عقل النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تكشف أن أعظم برهان على سلامة

الإنسان ليس ذكاه المجرد، وإنما الخلق الذي يضبط ذكاهه.

وتدخل بنا بستاناً لنعرف أن الأشياء التي نمتلكها ليست محصنة من القدر.

وتدخل بنا يوم القيامة لنعرف أن السجدة التي نستطيعها الآن ليست أمراً صغيراً.

وتدخل بنا ظلمة الحوت لنعرف أن نعمة الله تستطيع أن تجدنا حين لا نجدنا الأسباب.

ثم تتركنا أمام الذكر للعالمين، وكأنها تقول لكل قارئ: أعطيت قلباً من العمر، وصحيفة من

الأيام، ومساحة لا تعرف مقدار ما بقي منها؛ فاكتب حياتك بحيث إذا انتهى السطر لم تتمنَّ

أن لو عدت إلى أوله.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

فالإنسان في سورة القلم كاتب ومكتوب عليه في آن واحد؛ يكتب باختياره، وتكتب

الملائكة عليه، ويكتب الخلق صورته في قلوب الناس، ولكن فوق كل ذلك علم الله الذي

لا يخطئ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

وبين أول السورة وآخرها يبقى السؤال معلقاً فوق العمر كله:

ماذا سطرنا؟

وماذا سيبقى من هذه السطور حين نضع القلم أخيراً؟

هندسة السورة: من القلم الذي يكتب إلى الذكر الذي يعيد كتابة الإنسان

حين نعود إلى سورة القلم بعد أن قطعناها آيةً آيةً، لا تعود أمامنا مجموعة مشاهد متفرقة: قسم بالقلم، ثم دفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أوصاف لمكذب، ثم قصة بستان، ثم مشهد من القيامة، ثم حديث عن الاستدراج، ثم صاحب الحوت، ثم مواجهة أخيرة مع المكذبين؛ بل تبدأ هذه الأجزاء كلها في الاقتراب بعضها من بعض حتى يظهر تحتها بناء واحد بالغ الإحكام، كأن السورة لم تكن تتحرك من موضوع إلى موضوع، وإنما كانت تدور حول سؤال مركزي واحد: أيُّ إنسان يصنعه الوحي، وأيُّ إنسان يصنعه الاستغناء عن الوحي؟ ثم تضع النموذجين أمامك لا في قضايا نظرية مجردة، بل في الخلق، واللسان، والمال، والنظرة إلى الضعيف، وطريقة استقبال النعمة، والقدرة على السجود، وموقف الإنسان من الزمن، وصبره حين يتأخر ما يريد.

ولعل أول ما يدهشنا في هذه الهندسة أن السورة تبدأ بأداة لا تبدو في الظاهر متصلة بالأخلاق: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، ثم بعد آيات قليلة جداً تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وكأن المعرفة والخلق موضوعان متجاوران منذ البدء، فلا قيمة

سُورَةُ الْقَلَمِ | رِحْلَةُ مَنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

لقلم لا يهذب صاحبه، ولا شرف لعلم لا يتحول إلى أمانة داخل النفس. إن أعظم أزمة معرفية ليست أن يجهل الإنسان شيئاً، بل أن يعرف ولا يصبح أفضل؛ أن يحمل الكلمات ولا تحمل الكلمات روحه إلى مكان أرفع، وأن يكتب عن الفضيلة ثم يكون أول من يخونها حين تتعارض مع مصلحته. ومن هنا يكاد القلم في السورة يقول: المعرفة التي لا تعيد بناء حاملها ناقصة، والبيان الذي لا يصنع خُلُقاً قد يتحول إلى حيلة أكثر أناقة في خدمة الأهواء.

ثم تقابل السورة بين رجلين من خلال اللسان؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يصفه ربه بالخلق العظيم، ورجل آخر تبدأ صورته بكثرة الحلف ثم الهمز ثم النيمة. وفي هذا التقابل تتضح فلسفة قرآنية شديدة الدقة: اللسان نافذة الباطن. ليس الكلام مجرد أصوات منفصلة عن شخصية المتكلم، وإنما يتسرب الداخل عبره وإن حاول صاحبه إخفاءه؛ صاحب النفس المستقرة لا يحتاج إلى الحلف في كل منعطف حتى يفرض الثقة، وصاحب المروءة لا يجد لذته في عيوب الآخرين، وصاحب القلب السليم لا يعيش ناقلاً للخصومات. ولهذا لم تحتاج السورة إلى كتابة أطروحة طويلة عن نفسية المكذب؛ يكفي أن تقول لك كيف يتكلم، وماذا ينقل، وماذا يمنع، حتى ترى الإنسان من داخله.

ثم ينتقل الفساد من اللسان إلى المال، وتجيء العبارة: ﴿مَنَاعَ لِلْغَيْرِ﴾، وكأن السورة تريد أن تقول إن القلب الذي لم يتعلم الكرم في الكلام لن يكون بعيداً عن الشح في المال؛ فالرذائل،

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

كما الفضائل، تساند. القلب المتعالي على الناس قد يهزمهم بلسانه ويمنعهم بيده، ثم يجد في كثرة المال والبنين مبرراً إضافياً لاستعلائه، حتى يصل تضخم النفس إلى موضع الوحي ذاته، فإذا تليت عليه الآيات قال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهنا تبلغ السورة بنا إلى قانون شديد الخطورة: الفساد الأخلاقي قد يتحول مع الزمن إلى فساد في جهاز استقبال الحقيقة نفسه؛ لأن الإنسان لا ينظر إلى الأدلة بعين محايدة تماماً، بل قد تدخل أهواؤه ومكاسبه في طريقة رؤيته، فيرفض الشيء لأنه باطل في ظنه، بينما يكون في أعماقه رافضاً للثمن الذي سيكلفه إياه قبول الحق.

ولذلك جاءت قصة أصحاب الجنة في موضعها كأنها مختبر عملي للفكرة التي سبقتها؛ فالآيات قبلها قالت عن المكذب: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ﴾، ثم تأخذنا السورة إلى أناس آخرين يملكون مَالاً متجسداً هذه المرة في بستان مثمر، فنرى ماذا يمكن أن تفعل الملكية بالنفس إذا لم يحرسها الإيمان. لم يقل أصحاب الجنة إنهم لا يؤمنون بالله صراحة، ولم يُرو لنا أنهم أنكروا الخالق، ولكن سلوكهم كشف خلافاً أخطر في لحظة العمل: تصرفوا كأن النعمة مستقلة عن واهبها، وكأن الغد مضمون بقرارهم، وكأن المسكين كائن زائد يمكن إخراجه من المعادلة بلا أثر.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

هكذا يظهر أن الكفر العملي بنعمة الله قد يبدأ من كلمة صغيرة جداً في الداخل: هذا لي. ليست «لي» في ذاتها خطأ؛ الإسلام يقر الملكية، ويحفظ الحقوق، لكنه يقاوم التحول الخفي من «هذا لي بما ملّكني الله» إلى «هذا لي على نحو لا حق لله فيه ولا لعباده». عند هذه النقطة تتحول الملكية من وظيفة إلى استحواذ، وتبدأ النعمة في صناعة حاجز بين الإنسان والمنعم بدل أن تكون جسراً إليه.

ومن أعجب ما في قصة الجنة أن أصحابها خططوا لمنع الفقير وهم يظنون أنهم بذلك يحفظون الثمرة لأنفسهم، فإذا بالفعل نفسه يصبح بداية حرمانهم منها. أرادوا أن يضيّقوا دائرة المنتفعين، فضاقت الدائرة حتى خرجوا هم منها. وهذه ليست معادلة حسابية يجوز إسقاطها آلياً على كل واقعة في الدنيا، لكنها في القصة قانون أخلاقي واضح: حين يفسد تصور الإنسان للنعمة، يمكن أن تتحول النعمة نفسها إلى موضع امتحانه وعقوبته.

ولذلك كانت الكلمة التي أعادتهم إلى الطريق هي: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾. ليست المصادفة أن يكون التسبيح جواباً على أزمة اقتصادية في ظاهرها؛ لأن أصل الأزمة لم يكن في البستان، بل في تصورهم للربوبية والملك. احتاجوا أن ينزهوا الله حتى يصغر وهم قدرتهم، وأن يعيدوا الرب إلى مركز المشهد بعد أن ملأته «نحن»: سنصرمها، سندهب، سنمنع، نحن قادرون. وحين عاد الرب في الكلام ظهرت النفس على حقيقتها: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

وهذا الانتقال من «نحن قادرون» إلى ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ليس مجرد تحول لغوي، بل هو

انقلاب معرفي؛ فقد عرف الإنسان نفسه أخيراً. كثير من التوبة يبدأ من سقوط تعريف

قديم للذات: كنت أرى نفسي مالِكًا فإذا أنا عبد، كنت أرى نفسي قادراً فإذا قدرتي

عارية، كنت أرى المنع ذكاءً فإذا هو ظلم، وكنت أظن أن الخير الذي عندي مصدره

نفسي فإذا بي أكتشف أنني أتنفس أصلاً بفضل لا أستطيع ضمان استمراره دقيقة واحدة.

ثم تنتقل السورة مباشرة من هذه الجنة الزائلة إلى ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، فتضع أمام الإنسان

ملكيتين: ملكية يُسك بها مؤقتاً في الدنيا، وعطاء عند الله في الآخرة. ومن هنا يُعاد ترتيب

مفهوم الربح كله. ليست الخسارة الكبرى أن تفقد بستاناً، كما أن النجاح الأكبر ليس أن

تمتلك يدك؛ النجاح النهائي أن تصل إلى الله بقلب لم تفسده الأشياء التي مرّت به.

ثم يأتي السؤال الصادم: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾. بعد كل هذا الحديث عن الخلق

والمال، تأخذ السورة المسألة إلى أصلها: لا يستوي الطريقتان لأنهما لا يصنعان الإنسان

نفسه. الإسلام ليس بطاقة اسمية تجعل صاحبها مساوياً في الحقيقة بمن استسلم لله حقاً؛ إنه

اتجاه وجودي كامل، والجرم ليس فقط من خالف مادة قانونية، بل من قطع الصلة بين

الحرية والمسؤولية حتى عاش كأن العالم بلا حساب.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

ومن هنا جاءت أسئلة السورة المتلاحقة: هل عندكم كتاب؟ هل عندكم عهد؟ هل لكم شركاء؟ وهي في حقيقتها عملية هدم لكل مصدر مزيف للطمأنينة. الإنسان يريد دائماً ضماناً للنجاة من غير أن يغير حياته؛ فإذا لم يجده في الوحي صنعه في الوهم. قد يقول لنفسه: أنا أفضل من كثيرين، أو قلبي طيب، أو الجميع يفعلون ذلك، أو رحمة الله واسعة، ويحوّل الحقائق الجزئية إلى وثائق أمان يتجاوز بها مطالب التكليف. لكن السورة تسأله السؤال الذي يفصح كل البناء: من أين لك هذا؟

ثم تأتي السجدة.

وهنا كأن كل شيء يصمت.

﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

إذا أردنا العثور على نقطة يجتمع عندها معنى سورة القلم كله، فقد تكون هذه الآيات من أشد مواضع الاجتماع؛ لأن السجود هو النقيض الكامل لكل أمراض السورة. المكذب متكبر، والسجود تواضع. صاحب الجنة توهم الاستقلال، والسجود إعلان العبودية. صاحب المال والبنين تعاطف بما يملك، والساجد يضع أشرف ما في جسده على التراب.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

الهماز يعيش بإسقاط الناس، والساجد مشغول بإسقاط كبره هو. المداهن يبحث عن رضا البشر، والساجد يتجه بجسده كله إلى الله.

لهذا كان العجز عن السجود في الآخرة نهايةً منطقية لحياة لم تتعلم السجود في الدنيا؛ لم يكن الخلل في عضلات الظهر، بل في تاريخ القلب.

وما أكثر ما نختزل العبادة حين نظن أنها أوامر منفصلة عن صناعة الشخصية. الصلاة لا تأخذ جزءًا من وقت الإنسان ثم تترك بقيته كما كان، بل يفترض أن تُعيد تدريبه خمس مرات في اليوم على الحقيقة الأكبر: أنت عبد. فإذا استقر هذا المعنى صار المال أقل قدرة على إفساده، والمديح أقل قدرة على إسكاره والذم أقل قدرة على كسره، والنصر أقل قدرة على جعله متعاليًا، والهزيمة أقل قدرة على جعله يأسًا؛ لأن كل هذه الأحوال تمر فوق أساس لا يتغير: لله أنا.

ثم تجيء آيات الاستدراج لتضيف بعدًا بالغ الرهبة: ليس كل من ابتعد عن السجود سيشعر فورًا بالخسارة؛ قد يعيش ويزداد ماله ويتسع نفوذه، وربما تحققت له مطالب كان يعدّها أدلة نجاح، بينما تقول السورة: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وهنا يُهدم آخر صنم معرفي: لا تقرأ رضا الله من رخاء الدنيا وحده. فالنعمة ليست شهادة صلاح في ذاتها، كما

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

أن المصيبة ليست شهادة إدانة في ذاتها؛ كلاهما ابتلاء، والميزان هو ما يصنعه كل واحد منهما في القلب.

ثم تأتي عبارة ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بعد الاستدراج كأنها جواب مباشر عن سؤال قد يثور في نفس صاحب الحق: إذا كان المكذبون ممهّلين، والباطل يمتد، والجزاء لا يقع فوراً، فماذا أفعل؟ والجواب ليس: اصنع بنفسك نهاية القصة، بل: اصبر لحكم ربك.

الصبر هنا ليس سلبية، بل رفض أن تجعل استعجالك إلهاً صغيراً يملّي على الأحداث موعدها. هناك فرق بين أن تعمل من أجل النتيجة وأن تعبد النتيجة؛ الأول تكليف، والثاني عبودية خفية. تعمل، تقول الحق، تبذل، تصبر، لكنك لا تشترط على الله متى تظهر الثمرة.

ولهذا جاء صاحب الحوت عليه السلام في موضع بالغ الدقة؛ لم تكن قضيته فساد الغاية، وإنما ضيق النفس في الطريق. وفي هذا رفق عظيم بالدعاة والمصلحين وأصحاب المشاريع النبيلة؛ فقد ينجو الإنسان من إغراء المال ثم يسقط في إغراء العجلة، وينجو من المداينة ثم يتعب من بقاء الاستجابة، ويكون صادقاً في مقصده لكن نفسه تريد أن ترى نتيجة صدقه الآن.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

فتقول السورة: ﴿وَلَا تُكُنْ كَصَاحِبِ الْخَوْتِ﴾، ثم لا تترك يونس عليه السلام في موضع

العتاب، بل تقول: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، لكي يبقى الميزان كاملاً؛ نعتبر

بالموقف ولا نهدر فضل النبي، ونفهم الخطأ ولا نحوله إلى هوية، ونعلم أن التربية الإلهية لا

تقصد تحطيم العبد وإنما إعادته إلى موضع أكل.

وعند آخر السورة يعود صوت قریش: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾، وتعود الكلمة التي بدأت بها

المواجهة. وقد يبدو لأول وهلة أن شيئاً لم يتغير: التهمة في البداية هي التهمة في النهاية. لكن

الحقيقة أن القارئ هو الذي تغير، ففي أول السورة سمعنا قولهم ولم نكن قد رأينا التفصيل،

أما الآن فقد رأينا الأخلاق التي يمثلها الطرفان، ورأينا من الذي يتكلم بالنيمة، ومن يمنع

الخير، ومن يغتر بالمال، ومن يحكم بلا كتاب، ومن يتكبر عن السجود، فصار سؤال «من

المجنون؟» قد حُسم دون حاجة إلى جدل طويل.

ثم تقول الآية الأخيرة: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

وهنا يبلغ البناء جماله الكامل، السورة بدأت بالقلم، وانتهت بالذكر. القلم يحفظ المعرفة خارج

الإنسان، والذكر يحفظ الحقيقة داخله. القلم يمنع النص من الضياع، والذكر يمنع القلب من

الضياع. القلم يسطر، والذكر يعيد قراءة ما سطر حتى لا يتحول العلم إلى حروف باردة.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ
فما فائدة أن يكون القرآن مكتوباً في المصحف إذا لم يعد يكتب شيئاً جديداً في القلب؟

وما فائدة أن نحفظ الآية إذا بقيت أنانيتنا كما هي؟

وما فائدة أن نقرأ قصة أصحاب الجنة إذا لم نراجع علاقتنا بما نملك؟

وما فائدة أن نتأثر بمشهد السجود إذا مر النداء للصلاة بعد ذلك وبقي القلب متثاقلاً؟

وما فائدة أن نقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم إذا لم نفهم أن اتباعه انتقل
تدريجياً إلى عالم ذلك الخلق؟

السورة إذن لا تريد قارئاً يخرج منها بمعلومة عن رجل من قريش، أو قصة عن أصحاب
بستان، أو مشهد أخروي، بل تريد أن تضع الإنسان كله تحت القلم، ليقرأ نفسه كما يقرأ
النص.

ميزان الخلق: لماذا كانت أعظم شهادة للنبي في السورة أخلاقية؟

ثمة أمر يلفت النظر بشدة: كان يمكن للوحي، وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة تهمة الجنون، أن يذكر عشرات البراهين على رجاحة عقله، أو أن يستعرض تفاصيل من حكمته وفصاحته وقيادته، ولكنه بعد نفي التهمة مباشرة يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وكأن الخلق في المنظور القرآني ليس فضيلةً تجميلية توضع بعد اكتمال الإنسان، بل علامة على اكتمال توازنه.

فالذكاء وحده يمكن أن يخدم الخير ويمكن أن يصبح آلة شر شديدة الكفاءة؛ والعلم وحده قد يحمل صاحبه إلى التواضع وقد يحمّله إلى الكبر؛ والبلاغة تستطيع أن تقول الحق وتستطيع أن تزخرف الباطل؛ والمال يستطيع أن يطعم المسكين ويستطيع أن يصنع صاحبه «مناعاً للخير». لذلك لا يكون الإنسان كاملاً بما عنده من قدرات، وإنما بالطريقة التي يحكم بها الخلق تلك القدرات.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

والخلق العظيم الذي شهد الله به لنبيه صلى الله عليه وسلم ليس مجموعة قواعد اجتماعية رقيقة، بل اتساع في النفس يجعلها قادرةً على حمل ثقل الرسالة من غير أن تسحقها الخسومة. ذلك هو الامتحان الأصعب للخلق: لا كيف تعامل من يحبك، بل كيف تبقى عادلاً مع من يؤذيك؛ لا كيف تتواضع حين لا تملك شيئاً، بل كيف تتواضع حين يصبح الناس من حولك؛ لا كيف تصبر ساعةً، بل كيف لا يتحول طول الألم في قلبك إلى رخصة للقسوة.

وقد جاءت السورة نفسها لتضع النبي صلى الله عليه وسلم وسط عناصر هائلة الاستفزاز: يتهمون في عقله، ينظرون إليه نظرات العداوة، يريدون منه المداينة، ويستمررون في التكذيب. ومع ذلك لم تقل له: انزل إلى مستوى الشتيمة حتى تنتصر، بل أبقيته على مقامه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهذا من أعظم ما ينبغي أن يتعلمه صاحب الحق؛ ليس الانتصار أن تجعل خصمك أسوأ مما كان، بل ألا يجعلك خصمك أسوأ مما كنت.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رِحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

ربما استطاع أن يسرق منك راحة، أو مكانة، أو فرصة، لكنه لا ينبغي أن يملك سلطة إعادة تشكيل أخلاقك. وإذا استطاع أذاه أن يحولك إلى نسخة أخلاقية منه فقد أخذ منك شيئاً أعظم مما أخذ في الخصومة.

لذلك فإن الخلق في سورة القلم شكلٌ من أشكال الحرية؛ أن تملك رد فعلك حتى لا يملكه الآخرون.

ومن هنا نفهم دقة اتصال قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ بقوله بعد ذلك: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾؛ فالخلق العظيم لا يعني فقدان الحدود. تستطيع أن تكون مهذباً بلا مداينة، رقيقاً بلا ذوبان، متسامحاً بلا خيانة للحقيقة. بعض الناس يظن أن حسن الخلق يعني أن تقول لكل إنسان ما يرضيه، بينما هذا قد يكون شكلاً من أشكال الخوف لا الخلق.

الخلق العظيم لا يبيع الحقيقة، لكنه يقدمها من قلب لا يتلذذ بإهانة المخالف.

وهذا الفارق دقيق، ولكنه من أتمن دروس السورة.

نعمة في اليد أم إله في القلب؟ قراءة في مأساة أصحاب الجنة

لم يكن بستان أصحاب الجنة مجرد أرض زراعية؛ كان امتحاناً لهويتهم. وحين تأمل القصة تجد أن النعمة لا تكشف فقط مقدار شكر الإنسان، بل تكشف تصويره لنفسه؛ لأن امتلاك الشيء يغير اللغة الباطنة للمرء ما لم يكن شديد اليقظة. قبل المال قد يشعر بحاجته إلى الله والناس، وبعد المال تبدأ النفس همساً في بناء أسطورة الاستقلال: أنا فعلت، أنا بنيت، أنا استحققت، أنا أقرر.

ولا شيء من هذه العبارات باطلاً بالضرورة إذا وضعت في موضعها؛ الإنسان يعمل فعلاً، ويستحق أجره عمله، وله حق القرار فيما يملك ضمن حدود الشرع. لكن الخطر ليس في الجملة الخارجية، بل في التحول البطيء الذي يجعل الله يغيب من خلف الأسباب.

لذلك كانت ﴿وَلَا يَسْتَنْوْنَ﴾ أعمق من عادة لفظية. ربما قال إنسان «إن شاء الله» مئة مرة وقلبه يعتمد على الأسباب اعتماداً مستقلاً، وربما لم يجر اللفظ مرة على لسان آخر في موقف

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

معين لكن قلبه ممتلئ افتقاراً لله؛ وإن كان المؤمن مأموراً بالأدب مع المشيئة وذكراً، فالمقصود أن الذكر اللساني يبلغ كماله حين يحمل وراءه معرفة قلبية.

أصحاب الجنة لم تكن أزمته في التخطيط؛ بالعكس، كانوا منظمين: وقت الحصاد معلوم، وموعد الانطلاق مبكر، والتنسيق موجود. القرآن لا يحارب التخطيط، بل يحارب تأليه الخطأ.

وهذه نقطة مركزية في بناء الإنسان المؤمن: أن يجمع بين أقصى درجات الأخذ بالأسباب وأقصى درجات التحرر من عبوديتها. تعمل كأنك مسؤول عن السعي كله، وتوكل لأنك تعرف أنك لا تملك النتيجة.

وحين تُفهم هذه المعادلة ينجو الإنسان من طرفين: العجز الذي يسمي نفسه توكلاً، والغرور الذي يسمي نفسه تخطيطاً.

أما المسكين في القصة، فهو لم يظهر بوجهه ولم يتكلم ولم يعرف اسمه، لكنه كان حاضراً في امتحانهم بقوة هائلة. وهذا من بلاغة القرآن: قد يكون أضعف شخص في المشهد هو الذي يُكشف به أخلاق الأقوياء.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

المسكين لا يستطيع أن يسقط البستان، ولا يستطيع أن يجبرهم على العطاء، لكن موقفهم منه هو الذي فضح علاقتهم بالنعمة. وهكذا كثيراً ما يكون الضعيف مرآة أخلاقية للأقوياء؛ الطريقة التي تعامل بها من لا تحتاج إليه تكشفك أكثر من الطريقة التي تعامل بها من تترقب منه منفعة.

ثم لما رأوا جنتهم قالوا: ﴿إِنَّا لَصَالُونَ﴾، وبعدها: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾. وبهذه الجملة الثانية انكسر وهم الاستحقاق؛ فالذي ظن أمس أن المسكين يمكن حرمانه اكتشف اليوم معنى أن يكون هو المحروم.

وكم في الأقدار من تعليم لا تستطيع الكلمات وحدها أن تؤديه.

قد نعرف تعريفاً أن الفقر مؤلم، لكن تجربة الحاجة تكشف طبقات لم نكن نراها. وقد نعرف أن الضعف قاس، لكن لحظة لا تستطيع فيها أن تدفع عن نفسك شيئاً تجعل الرحمة بالضعفاء معرفة مكتوبة في الأعصاب لا في الكتب فقط.

غير أن جمال القصة أنها لم تنته عند الرماد. لو انتهت عند ﴿نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ لصارت قصة خسارة، لكنها استمرت إلى ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ فصارت قصة استرداد للقلب. وهناك خسارات تنقذك.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

لا لأنها جميلة في ذاتها، ولا لأن الألم مطلوب لذاته، بل لأن الله قد يفتح من خلال

انكسار شيء في يدك باباً يصلح شيئاً في قلبك كان أخطر منه.

ومن هنا لا يكون السؤال عند كل خسارة: كيف أعيد ما فقدت؟ بل قد يلزم قبل ذلك

سؤال أعمق: ماذا يريد الله مني أن أرى الآن مما لم أكن أراه وأنا أملك؟

السجدة المؤجلة: لماذا يصبح بعض الندم بلا قدرة على الإصلاح؟

الدنيا مكان عجيب؛ يستطيع الإنسان فيها أن يفعل الخطأ ثم يتوب، وأن يبتعد ثم يرجع، وأن يقسو ثم تلين نفسه، وأن يضيع أعواماً ثم يجعل الله في ساعة صدق ما يعيد توجيه بقية عمره. سر الدنيا الكبير أنها دار إمكان؛ طالما بقيت الروح في الجسد فالأبواب التي نظنها أحياناً أغلقت قد يفتح الله منها باباً آخر.

لكن سورة القلم تأخذنا إلى لحظة ينتهي فيها هذا الإمكان: ﴿وَيُذَعَّرُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وهذا هو ما يجعل المشهد مخيفاً؛ ليست المشكلة أنهم لا يعرفون الحق في ذلك اليوم، بل إن معرفته صارت كاملة حين لم تعد المعرفة وحدها نافعة. كانوا في الدنيا يملكون مساحة الغيب؛ يستطيعون أن يؤمنوا قبل المعاينة، وأن يسجدوا اختياراً. وفي الآخرة يصبح الحق مشهوداً، لكن الاختيار الذي كان يصنع قيمة العبادة انتهى.

إن الزمن نفسه جزء من التكليف.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

ليست الطاعة فعلاً وحسب، بل فعل في وقته.

ولذلك لا يستطيع الإنسان أن يؤجل كل خير ويقول: سأفعله حين أرتب حياتي. الحياة لا

تقدم ضماناً بأن «حين» هذه ستأتي. ومن أخطر الخدع النفسية أن يتعامل الإنسان مع

المستقبل كأنه رصيد مملوك، فينفق منه أعواماً لم يحصل عليها بعد.

سأتوب لاحقاً.

سأصلح علاقتي بالله حين تهدأ الظروف.

سأقرأ القرآن عندما أنتهي من هذه المرحلة.

سأصل من انقطعت عنه يوماً ما.

وسورة القلم تقول بهدوء مرعب: هناك يوم يكون فيه «كانوا» هي الكلمة الفاصلة: ﴿وَقَدْ

كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالُونَ﴾.

كانوا.

كانت الفرصة، ثم صارت ماضياً.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخَلْقِ

ومن هنا تصبح الصحة نفسها جزءاً من النعمة الدينية. اليد التي تستطيع أن تتوضأ، والظهر

الذي يستطيع أن يركع، والعين التي تستطيع أن تقرأ، والعقل الذي يستطيع أن يتدبر، ليست

مجرد وظائف جسدية؛ إنها أدوات عبادة مؤقتة.

ولعل من أشد الغفلة أن يرى الإنسان جسده قادراً فلا يفكر إلا فيما تستطيع هذه القدرة

أن تجلبه له من الدنيا، ولا يسأل ماذا يستطيع أن يودع بها لآخِرته.

وحيث يوضع القلم

ثمّة لحظة لا نعرف موعدها، ولكننا نسير إليها منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها العمر؛ لحظة يوضع فيها القلم الذي نكتب به أيامنا، لا قلم الحبر الذي تمسكه الأصابع، بل ذلك القلم الأعمق الذي نصوغ به أنفسنا موقفًا بعد موقف، واختيارًا بعد اختيار، وكلمةً بعد كلمة. وحين تأتي تلك اللحظة لن نستطيع أن نطلب ورقة أخرى لنصحح عبارةً شوهنا بها قلبًا، ولا صباحًا إضافيًا نسجد فيه صلاةً أجلناها، ولا موسمًا آخر نعيد فيه تقسيم ثمار البستان بعد أن منعنا حق المسكين، ولا فرصة جديدة نصبر فيها حين استعجلنا.

ولهذا بدأت سورة القلم بالقلم.

ليس لأن الكتابة مهنة بعض الناس، بل لأن الحياة نفسها كتابة للجميع.

الكاتب يكتب كتابًا، والتاجر يكتب في طريقة كسبه، وصاحب المال يكتب في طريقة إنفاقه، والأب يكتب في ذاكرة أبنائه، والصديق يكتب في قلب صديقه، والمظلوم يكتب في طريقة تعامله مع جرحه، وصاحب السلطة يكتب حين يستطيع أن يظلم فيعدل، والفقير

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

يكتب حين يضيق رزقه فلا يبيع ضميره، وصاحب الدعوة يكتب حين يُساء إليه فلا يسمح للإساءة أن تسلب منه خُلُقَه.

وكل هذه الكتابات ستلتقي في صحيفة واحدة.

لقد أراد المكذوبون أن يكتبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاً واحداً: «مجنون».

لكن الكلمة سقطت، وبقيت شهادة الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهنا نتعلم أن الناس قد يكتبون عنك، لكن ما يكتبونه ليس قدرك.

سيكتبون أسماء، ويلصقون صفات، ويروون قصصاً ناقصة، ويفسرون صمتك كما يريدون،

لكن وراء كل هذه السطور علماً لا يخطئ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾.

وما أعظم الحرية التي تنزل إلى القلب حين يصدق هذه الحقيقة؛ فلا يعود مضطراً إلى

الركض خلف كل صوت ليصحح صورته، ولا يستهلك عمره في محكمة بشرية لا تنتهي

جلساتها، بل يسأل السؤال الذي يستحق الخوف فعلاً: كيف أنا عند الله؟

ثم علمتنا السورة أن الخُلُقَ ليس زينة الإنسان بعد إيمانه، بل صورة إيمانه حين يمشي بين

الناس؛ وأن بإمكان الإنسان أن يكتب أجمل الكلام عن الله ثم تفضحه كلمة غيبة، أو

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

موقف بخل، أو لحظة كبر. ولذلك قربت السورة القلم من الخلق حتى لا ينفصل العلم عن الحياة.

وعلمتنا أن المال لا يصبح نعمة كاملة بمجرد وصوله إلى اليد؛ يظل السؤال مفتوحاً حتى نرى إلى أين سيصل بعد ذلك: هل تقف النعمة في اليد أم تنزل إلى القلب فتحتله؟ هل يمر منها خير إلى الآخرين أم تتحول إلى سور يمنعهم؟ وهل تقول لصاحبها كلما زادت: أنت أقوى، أم تقول له: أنت أشد افتقاراً إلى شكر من زادك؟

وعلمتنا الجنة المحترقة أن الإنسان لا يستطيع أن يبني جداراً يمنع القدر من الدخول. كان أصحابها نائمين.

وهذه ربما أكثر تفاصيل القصة كشفاً لعجز الإنسان.

النوم اعتراف يومي لا ننتبه إليه: كل ليلة يضع أقوى الناس سلطانه، ويغلق أغنى الناس حساباته، ويترك أذكى الناس وعيه، ويدخل البشر جميعاً حالة لا يستطيع الواحد منهم فيها أن يحرس نبضة قلبه.

ثم يستيقظون ويتحدثون عن السيطرة الكاملة.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةً مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

لكن المؤمن حين يستيقظ يعرف أن عودته إلى الوعي نفسها هبة جديدة.

وعلمتنا السورة أن المسكين قد يكون في طرف المشهد ولكنه في قلب الامتحان؛ وأن الناس لا يُختبرون فقط فيما يقولونه عن العدالة، بل فيما يفعلونه عندما يقف صاحب حاجة أمام بابهم ولا يملك لهم نفعا ولا ضرا.

وعلمتنا أن التوبة ليست إذلالاً للنفس، بل إنقاذ لها من الكذبة التي كانت تعيشها؛ أصحاب الجنة لم يبدأ شفاؤهم حين أعيدت إليهم الثمرة، بل حين استطاعوا القول: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

فالاعتراف الصحيح لا يهدم الإنسان، وإنما يهدم الجزء الكاذب الذي كان يمنعه من الإصلاح.

وعلمتنا أن السجود نعمة قبل أن يكون تكليفاً؛ وأن هناك فرقاً هائلاً بين جبهة تستطيع أن تنزل لله ولا تريد، وجبهة تريد يوماً أن تنزل فلا تستطيع.

فيا أيها الإنسان الذي لا يزال يستطيع السجود: أنت أغنى مما تظن.

ويا من لا يزال يستطيع أن يقول «أستغفر الله»: لا تؤجل كلمة قد يأتي وقت يكون الندم فيه أوسع من القدرة.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

وعلمتنا آيات الاستدراج ألا تنق بكل نجاح؛ فرب نعمة كانت دعوةً إلى الشكر، ورب نعمة صارت عند الغافل درجةً أخرى في طريق الابتعاد. وليس المخيف دائماً أن تغلق الأبواب في وجهك؛ ربما كان الأكثر إخافة أن تفتح كلها وأنت تمضي في الاتجاه الخطأ.

وعلمتنا قصة يونس عليه السلام أن الصالح قد يتعب، وأن النبي الكريم قد يضيق، وأن العبرة ليست أن يتحول البشر إلى كائنات لا تمر بها المشاعر، بل أن نتداركهم نعمة الله حين يضيقون، وأن يعودوا.

فليس كل تعثر نهاية الطريق.

وقد تكون الحوت الذي ظننته قبراً هو الموضع الذي نتعلم فيه دعاءً لم تكن ستتعلمه على اليابسة.

ثم علمتنا السورة في آخر كلمة فيها أن القرآن ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

و«الذكر» ليس إضافة معلومة إلى عقل فارغ فقط؛ هو إعادة شيء إلى موضعه بعد أن غاب.

ننسى أننا عبيد، فيذكّرنا.

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

تنسى أن المال عارية، فيذكركنا.

تنسى أن الناس لا يملكون تعريف حقيقتنا، فيذكركنا.

تنسى أن النصر له توقيت، فيذكركنا.

تنسى أن الصحة فرصة، فيذكركنا.

تنسى أن المسكين له حق، فيذكركنا.

تنسى أن الإمهال ليس رضا، فيذكركنا.

تنسى أن وراء السطر الأخير لقاء، فيذكركنا.

ولذلك لعل أعظم سؤال نخرج به من سورة القلم ليس: ماذا فهمت منها؟ بل: بماذا

ذكّرتني؟ لأن الإنسان قد يفهم ولا يتغير، لكن الذكر الذي يصل إلى القلب يعيد ترتيب

الأشياء. ويصبح المال أصغر. والله أكبر. ويصبح كلام الناس أصغر. وعلم الله أكبر.

ويصبح الانتظار أخف. وحكم الله أعظم. وتصبح السجدة أثمن. ويصبح المسكين أقرب.

ويصبح الخلق جزءاً من العقيدة لا هامشاً عليها. ويصبح القلم أمانة. ثم تمضي الحياة. سطرًا

سُورَةُ الْقَلَمِ | رَحْلَةٌ مِنْ شَرَفِ الْكَلِمَةِ إِلَى امْتِحَانِ الْخُلُقِ

بعد سطر. وورقةً بعد ورقة. حتى تأتي الصفحة التي لا نعرف رقمها، ويكون تحتها آخر ما كتبناه.

عندها لن يكون السؤال كم كان الكتاب طويلاً. بل هل كان صادقاً؟ لن يكون السؤال كم صنف له الناس. بل هل رضي عنه الله؟ لن يكون السؤال كم امتلك صاحبه. بل ماذا بقي له مما قدّم؟ وسيوضع قلم العمر. أما ما سطر به فلن يضيع. ولهذا، قبل أن يوضع القلم، ما يزال في الصفحة متسع. متسع لسجدة. ولاعتذار. ولصدقة. ولرجوع. ولصبر. ولكلمة طيبة. ونخلق يليق بعبد يقرأ في كتاب ربه: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وهنا تنتهي سورة القلم في المصحف، ولكن امتحانها فينا لا ينتهي إلا حين يوضع القلم.